

الراماينا

بقلم: محمد اسماعيل الندي

التاريخ والفكر في الهند ، اذ أنهم استولوا على المناطق الشمالية بعد فتحها وطرد أهلها الى الجنوب كما جلبوا معهم حضارة أوربا القديمة ومنطقة الشرق الأوسط وتقاليدهما بعد أن عاشوا فيهما ردحا طويلا من الزمن . ولكن سرعان ما امتزجت حياتهم وتقاليدهم بأهالي الهند القدماء وظهرت حياة وثقافة جديدتان تتميزان بالخصائص الآرية والمزايا الهندية القديمة على السواء . وقد وضع «رجفيدا» (Reg-veda) أقدم كتاب ديني للآريين ، سجل فيه حياتهم وتقاليدهم وأفكارهم السهلة والسادجة تجاه الكون وخالقه . وهذه الظاهرة تدل على أن الآريين القدامى وجهوا عنايتهم منذ أول قدومهم الى تسجيل أفكارهم ونزعاتهم . ومن ثم توالى بعد «رجفيدا» صدور كتب كثيرة دينية . ولما كانوا في بادئ الأمر قد خاضوا معارك كثيرة وافتتحوا بلادا عديدة في شمال الهند ووسعوا رقعة بلادهم من الشرق الى الغرب . فقد ساعدت هذه الأحداث والوقائع على ظهور قصص وأساطير تصور حياتهم

تمتاز الهند بحضارتها الأصيلة وآدابها وفنونها وفلسفتها كاليونان ومصر ، لأنها كانت منبع الحضارة ومهد الثقافة . وقد تفجرت من أرضها ينابيع العلوم والفنون والمعارف التي تتسم بالأصالة وطابعها الخاص . وقد ساهمت في هذا المجال أمم كثيرة وطوائف عديدة نزحت الى الهند في العصور السابحة واستوطنتها ومن أهمها بل وأكثرها قوة وأثرا وخلودا الأمة الآرية ، التي نزحت من أوربا الى آسيا واحتلت أولا بلاد الفينيقيين ثم ايران في حدود عام ١٥٥٥ ق م تقريبا . ومنها نزحت الى الهند بعد نصف قرن تقريبا . ولقد اختلف المؤرخون في الموطن الأصلي لهؤلاء اذ يرى بعضهم أنهم كانوا من سكان «سييريا وتركستان» . وقال آخرون أنهم كانوا يقطنون بلاد «بامر» (Pamer) وقال بعضهم : أنهم كانوا يسكنون في ألمانيا وبولندا ولكن أرجح الأقوال في هذا الصدد أنهم يقطنون جنوب روسيا (١) .

ومنذ قدوم الآريين الى الهند تغير مجرى

وعقليتهم وتقاليدهم وبطولتهم وقيمهم المعنوية على أبدع صورة وأجمل مظهر .

ان « الرامايانا » (Ramayana) أول ملحمة أو اسطورة في هذا الصدد تصور المرحلة الأولى من حياة الآريين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

وقد عاشت بين فترتي القرن الثاني عشر والعاشر قبل الميلاد في شمال الهند في ولايتي «أثاربراديش» (U.P.) و «وبهار» (Bihar) أسرتان كبيرتان لملوك الآريين وهما «كوسالاس» (Kosalas) «وفيدحاس» (Videhas) وكانت مدينة «أوده» (Oudh) عاصمة «دساراتا» (Dasa-ratha) ملك «كوسالا» . أما مدينة بتنه Patliputra or Patna فقد كانت عاصمة ملك «فيدحاس» الذي زوج ابنته «سيتا» لبطل الأسطورة الابن الأكبر لدساراتا وهو راما (١) .

واذا كانت «الرامايانا» عبارة عن الأحداث التاريخية التي وقعت في هذه الفترة من الزمان ، فانها لم تسجل في نفس الوقت على الصورة الحالية . بل مرت بمراحل كثيرة ، لأننا اذا نظرنا الى القصص السنسكريتية القديمة وأساطيرها نجد أنها ظهرت منذ القرن العاشر قبل الميلاد . فقد تناولها الشعراء باعجاب وتقدير ونظموها بالشعر السنسكريتي . وهذه الأشعار لم تسجل في تلك الفترة بل ظلت تحفظها صدور الناس كما كان الحال في كل أمة عاشت في ظل البداوة . وبهذا مرت ملحمة «الرامايانا» التي ظهرت في القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا بمراحل عديدة ، وتناقلتها الألسن من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر حتى اتخذت هذا اللون البديع الأنيق في القرن الخامس أو

الرابع قبل الميلاد (٢) .

لقد ألفت هذه الملحمة باللغة السنسكريتية الناضجة ولذلك يرى بعض الباحثين أنها ألفت في القرن الخامس قبل الميلاد ، أى بعد مرور مايقرب من ألف سنة على حدوثها ، لأنها تصور شطرا من الحياة الاجتماعية والسياسية لهذه الفترة . ويرى الأستاذ (F.W. Thomas) أنها ألفت في القرن الثاني قبل الميلاد تقريبا ، إذ كانت السنسكريتية في ذلك الحين هي اللغة الأدبية والرسمية ، وقد ظهرت هذه اللغة بعد قدوم الآريين الى الهند . وهي في الحقيقة فرع من لغات أوروبا القديمة التي نشأت منها اليونانية ثم الانجليزية والألمانية وما الى ذلك . ولذلك تسمى السنسكريتية «اللغة الهندية الآرية» (Indo-European)

كانت السنسكريتية في بادى الأمر لهجة أوروبية تشبه اليونانية القديمة ، تكلم بها الآريون الذين نزحوا الى الهند ، واقتبسوا ولاية بنجاب وقطنوها في أول الفتح . وقد مرت هذه اللغة مع الاختلاط باللغة الأصلية في الهند بعدة تغيرات كما سجلتها عدة كتب دينية هندوكية مثل «رج فيدا» و «يوبانيشاد» . ثم زادت رقعة الفتوحات واتسع سلطان الآريين الذي امتد الى عدة مناطق هندية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، واحتلوا أربع ولايات كبرى وهي «بنجاب وأثاربراديش وبهار ومدهيا براديش» . وهذه الولايات الأربع لا تزال حتى اليوم معقل العنصر الآري ومهد الحضارة الآرية . وقد أخذت هذه اللغة في التطور في نحو ألف سنة . وفي خلال هذه المدة وضعت لها قواعد النحو والصرف والعروض ، وألفت بها الكتب العلمية والأدبية .

Hinduism by M. Sen p. 73 and the Legacy of India p. 63.
The Legacy of India p. 67.

The Ramayana of the Mahabharata by
Romech C. Dutt p. 1

وفي القرن الرابع قبل الميلاد اتسمت هذه اللغة بثلاث خصائص بارزة قسمتها الى ثلاثة فروع أو شعب : أولاها اللغة الكلاسيكية التي تكلم بها رجال الدين والكهنة . وقد توارثها هؤلاء كإبراهيم كابر فاحتفظوا بقلوبها وصياغتها في حب وتقدير لاحد لهما ، فأصبحت هذه اللغة كبنيان مرصوص بعد تأليف «باني» (Paini) - النحو الشهير قواعد نحوية مربوطة لها ، وذلك في القرن الرابع قبل الميلاد . وثانيها لغة الشعراء والأدباء . وبهذه اللغة ألفت الأساطير الهندية الشهيرة مثل «الراماينا» و «المهابارتا» . وثالثها لغة عامة المتعلمين والمثقفين السهلة التي ألفت بها معظم أجزاء كتب «الثيدا» كما ألفت بها أيضا كتب العلوم والفنون مثل السياسة والقانون والأدب والفن (١) . وفيما يتعلق بالأبواب والفصول في ملحمة «الراماينا» يقول الأستاذ «رومش دوت» (Romes) - باحث هندوكي شهير في الآداب السنسكريتية - انها في الأصل تحتوي على ستة أبواب فقط وتنتهي بعودة الأبطال الى ديارهم بعد مغامراتهم الطويلة لسنين عديدة . ولكن الباب السابع الذي ألفت بعد قرون من حدوث وتسجيل هذه الملحمة هو في الحقيقة معيار جديد للشعر السنسكريتي اذ تلوح فيه ملامح لغة جديدة حديثة ظهرت في القرون الأخيرة قبل الميلاد .

وخلاصة القول أن الملحمة تحتوي على ستة أبواب أصلية وذييل في الآخر يكون الفصل السابع ثم تنقسم الملحمة كلها والتي ألفت بالشعر الى ٥٥٠ مقطع أو قصيدة تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت .. وبدراسة الباب السابع يظهر لنا بكل وضوح أنه ألفت قبل الميلاد اذ نجد فيه بلدانا وأحداثا ومشاهد لم تعرف في عصر «راما» البطل واخوته بالمرّة .

The Legacy of India p. 40-41.

(١)

وعلى هذا الأساس يمكن لنا القول بأن الملحمة تصور أحداث القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكنها سجلت في هذ القالب الشعري في القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد (٢) .

وهذه الملحمة ككثير من الكتب الهندوكية القديمة لا يعرف مؤلفها على وجه التحديد .

وقد جاء في «الراماينا» نفسها أن الراهب «الميكى» الذى ساعد «راما» في محنته في الغابة والذى شاهد وعاصر جميع مشاهد البطولية هو الذى نظمها بعد عودة «راما» من منفاه الى «أيودها» . ففي هذه الآونة لجأت اليه «سيتا» زوجة راما وماتت في ديره ، لأن راما نفاه الى الغابة . ولذلك أتيت للراهب فرصة تربية ابنى «راما» اللذين عاشا في كنفه تربية رهبانية . وقد جال بخاطره في هذه الفترة الميل الى نظم مشاهد «راما» ومواقفه البطولية كلها بالشعر . فبدأ في نظمها وقد استغرق هذا العمل منه خمسة وعشرين يوما . كلما قرض «الميكى» مقطعا حفظه ابنا راما في نفس الوقت . وبهذا حفظا الملحمة كلها والتي تتكون من خمسمائة مقطع ، تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت . وقد أقام راما احتفالا دعا فيه الراهب والميكى أيضا . فحضره «الميكى» مع ابنى راما اللذين أنشدا في هذه الحفلة ملحمة «الراماينا» كلها . وقد أثارت هذه الملحمة دهشة راما واعجابه ، وكذلك أعرب الشعب عن اعجابه الشديد بها ، وتقديره العظيم لها . فأقبل الناس على حفظها بشوق ورغبة منقطعي النظر . وبهذا احتفظت بها الصدور وتناقلتها الألسن دهرا طويلا الى أن سجلت كتابة في القرون الأخيرة قبل الميلاد (٣) .

The Wisdom of India by Lin Yutang p. 123. (٢)

The Wisdom of India by Lin Yutang p. 271. (٣)

هذه الظاهرة تلقى الضوء على التأليف والتدوين في الهند في القرون الخالية ، لأننا نفهم أنها كالبلدان المتحضرة الأخرى في العالم لم تسجل إنتاجها الأدبي والفكري من أول وهلة ، بل تداولت ألسن الناس «الرامايانا» دهرًا طويلاً ، وحفظتها الصدور زمناً غير يسير ، حتى وجهت العناية أخيراً إلى تسجيلها في الكتب بعد أن قطعت الهند مرحلة طويلة في ميدان العلم والفكر .

ولكن الرامايانا على الصورة الحديثة ليست جهود شاعر أو شاعرين بل ساهم في أداء هذه المهمة عدد من الشعراء البارزين الذين عاشوا خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد كما هو الشأن للملحمة أخرى شهيرة ألفت بعد الرامايانا وهي «المهابهارتا» (Mahabharata) (١)

ويجدر بنا الآن أن ننظر إلى النواحي الأدبية والفنية في هذه الملحمة . وما من شك في أنها من أولى نماذج الأدب والقصص في الأدب السنسكريتي بل الأدب الهندي قاطبة . وهي غنية بالأحداث والمشاهد والحكايات والصور ، وتعتبر نواة أولى للأساطير والقصص والمسرحيات السنسكريتية الشهيرة التي ظهرت فيما بعد مثل «نالا» (Nala) و «ساوترى» (Savitri) وشكتلا . وهي صادقة فيما تحكى عن نفسها في موضع من المواضع إذ أنه لم تظهر قصة على وجه هذه الأرض قبل هذه القصة ، وهي التي تغذى جميع القصص وتمنح القوة لجميع الشعراء وهي درة يتيمة للشعر والشعراء (١) .

إن «الرامايانا» تحمل المثل العليا والأهداف النبيلة والقيم الأخلاقية والأعمال البطولية التي تمثل جوانب إنسانية رائعة فيها الدرس والعبرة لكل

(١) أنظر ما جاء في تقديم :

The Legacy of India p. 67.

The Ramayana of the Mahabharata

(٢)

إنسان يقرؤها كما يلوح فيها وفي كل موقف من مواقفها الصفاء والجمال والصدق والرقّة والعاطفة والهدف الأساسي فيها هو المرأة والبيت في حين أننا نجد ملحمة «المهابهارتا» تدور حول الرجل والحرب (٣) . وبما أنها أقدم تراث وصل إلينا تتجلى لنا فيها معالم الهند القديمة كلها من حياة شعبها ومجتمعها وتقاليدها ومعتقداتها .

أما الناحية الفنية فيها فهي تعطى بؤادر أولى وأساساً ثابتة للأساطير الهندية التي ظهرت فيما بعد ، لأنها تصور الغابات الهندية الشهيرة الممتلئة بالوحوش والحافلة بالأخطار والتي غامر فيها أبطال هذه الملحمة أنفسهم وقضوا فيها سنين عديدة يهيمنون على وجوههم ويخاطرون بأنفسهم ويتنقلون من غابة إلى غابة ومن بلد إلى بلد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب حتى جزيرة «سيلان» الشهيرة التي منحت هذه القصة الشهية جوانب إنسانية رائعة وبطولة عظيمة ومواقف بين النهرين الشهيرين «الجنجا والجمنا» مثل «أوده وقنوج واليه آباد» ولكن لا يكاد يبين لنا في خلال هذه الملحمة أثر المدن الشهيرة الأخرى مثل «دلهي» و «أجينا» اللتين لعبتا دوراً كبيراً في الأدب السنسكريتي القديم ولا سيما في ملحمة «المهابهارتا» ومسرحية «شكتلا» (٤) وهذه الظاهرة تدل على أن نطاق هذه الدولة لم يتسع إلى هذه المناطق . ومع ذلك يتضح لنا من خلالها معالم الهند كلها مثل طبيعتها الفتانة وجمالها الباهر وأنهارها الجارية وغاباتها المظلمة ووديانها وروعدها وأمطارها وسحبها .

وهذه الملحمة أو الأسطورة تصور الحياة الروحية والقيم المعنوية لدى الهنود في هذه

(٣) The Wisdom of India p. 122.

(٤) أنظر مقالنا عن «شكتلا» في مجلة «تراث الإنسانية» ، الصادرة في أغسطس سنة ١٩٦٥ .

الفترة من الزمان . فلقد قطع الآريون مراحل عديدة في تطورهم التاريخي والفكري اذ مرت حياتهم حيناً بالمادية البحتة وحيناً آخر بالروحانية المحضة . وبما أن «الراما يانا» تصور أولى مرحلة حياة الآريين في الهند فنرى أن حياتهم تموج بالروحانية والقيم الأخلاقية والمبادئ السامية .

ومن الأهداف الرئيسية فيها أنها تحث الانسان على التضحية وأداء الواجبات نحو الانسانية ويذم الأنانية والحرص على تحقيق الأغراض الشخصية (١) . والسبب في ذلك أن الانسان في كل مكان قطع المرحلة الأولى من الحياة في الايمان بالله وقدرته وجبروته في هذا الكون . ثم ظهر عليه الطغيان والتمرد أخيراً مما حدى به في بعض الأحيان الى الكفر بالله والجسري وراء المادية والشهوانية . وقد وقعت الهند في هذا اللون من الحياة في العصور التي تلت «الراما يانا» كما تصورها ملحمة «المهابهارتا» . وهذا هو السبب في أن «كرشن» الشخصية الأسطورية في هذه الملحمة حمل لواء المعارضة ضد هذه الحياة (٢) .

وحيثما ننظر الى القيم الروحية والمبادئ السامية في «الراما يانا» نجد أن أحسن ما يتصوره الانسان في هذا المجال الطاعة والخضوع والوفاء والاخلاص والمحبة والتضحيات والعفو والتسامح والكرم وما الى ذلك . وأول ما نصادفه في هذا الصدد أن الملك «دساراتا» يحب ابنه الأكبر راما حبا جما ، ولكنه يقع في خديعة زوجته الصغيرة الجميلة فيقطع لها العهد على نفى «راما» من البلاد وتولية ابنها «بهارت» العرش . ونجد أنه وفاء

لعهد والده مع زوجته يترك البلاد ويهيم على وجهه في الغابات فيما يقرب من أربع عشرة سنة ، يعاني فيها الكثير من أنواع العذاب والتعب والارهاق . كل هذا حبا لوالده وطاعة وخضوعا لمشيئته . وأما «سيتا» زوجته فتطيع زوجها الى حد العبادة وتضرب الأمثلة الرائعة للزوجة المثالية بوفائها واخلاصها وتضحياتها له حتى في أصعب اللحظات حينما يخطفها الملك «راون» ملك سيلان ويرغمها على الزواج منه .

وحيثما يرافق راما أخوه «لشمن» الى الغابة تصور هذه المشاهد نماذج حية لحب الاخوة بعضهم لبعض ، واخلاصهم وتضحياتهم . وفي ثنايا هذه المصائب والآلام يضطر راما الى اعلان الحرب على راون ملك سيلان لانتقاد زوجته سيتا الوفية من قبضته الظالمة ، ولكن هذه الحرب هي الأخرى تعطى درساً أخلاقياً رائعاً لأنه يتجنب فيها أراقة الدماء ونشر الدمار في أول الأمر ، ويحاول بأقصى ما في وسعه من جهد لايجاد حل سلمي . وحيثما تدور رحى الحرب بين الفتيين يحاول راما بأقصى ما يستطيع أن لا تطفئ عليه ثورة الانتقام أو يسيطر عليه غضب أو قهر . فكان كل همه منحصر في انتقاد زوجته من الملك الطاغية الذي خطفها ووضعها تحت سيطرته ظلماً وطغياناً . تبدو لنا هذه الحرب ومن خلال هذه القيم المعنوية الرائعة حرباً مقدسة وليست حرباً دامية تصورها ملحمة المهابهارتا .

قد ساد الجانب الروحي هذه الملحمة الى حد كبير لأنها تروى على لسان راهب يصف معاركها ويسرد أحداثها سرداً دينياً مقدساً . ومن أجل هذه الصبغة الروحية والقيم المعنوية فيها يرى الباحث توماس (F.W. Thomas) أنها تمهد السبيل للبوذية التي نشأت بعد ظهور هذه الأسطورة فيما يقرب من ستة قرون لأنه طغى عليها ذلك الجانب

(١) The critical survey of Indian philosophy by Dr. Chandradar p. 41

(٢) قد أوردنا التفصيل في هذا العدد في مقالتنا عن «جيتا» في مجلة «تراث الانسانية» الصادرة في أغسطس سنة ١٩٦٤ .

الروحي الذي يلوح في الرامايانا بأبداع مظاهره وأدق معانيه (١).

ومن مميزات الديانة الهندوكية الآرية بالنسبة الى الديانات السماوية السامية - مثل الاسلام واليهودية والمسيحية - أنها لا تعتقد في النبوة ولا يوجد فيها هذا التصور بتاتا ، بل تؤمن بنظرية الأوتار أو التجسد وهي ظهور الله سبحانه في مظهر انساني واتخاذ قلبه لهداية البشرية وارشادها الى فعل الخير في هذا الكون . وقد نشأت هذه العقيدة لأول مرة في التاريخ الهندوكي في الرامايانا لأن « القيدا » - أول كتاب في الفكر الهندوكي - يؤمن بتعدد الآلهة التي تملك طاقات هائلة في البر والبحر والشمس والنار والعواصف . وأما كتب « اليوبانيشاد » التي ظهرت فيما بعد فهي تعطي فكرة ناضجة عن الايمان بـ « براهمان » (Brahman) الذي لا مثيل له ولا نظير ولا شبيه اذ هو قوة هائلة تملك السموات والأرض وهذه العقيدة بدون شك تصور أقصى مرحلة للفكر الآري حيث تزول جميع الآثار الوثنية ويتجلى التوحيد بأبداع مظاهره كالديانات السماوية السامية . ولكن «اليوبانيشاد» لا يمكن تحقيق الاستفادة منه الا للمتعلمين والعلماء فقط ، ولذلك كانت الحاجة ماسة الى عقيدة تتوسط بين الوثنية وبين التوحيد ، تؤمن بها جماهير الشعب الهندوكي التي لم تبلغ مبلغا كبيرا في مستواها الفكري ، وهذه هي نظرية الأوتار التي ظهرت لأول مرة في « الرامايانا » في شخصية رام بطل الأسطورة . ثم تطورت تطورا كبيرا في ملحمة أخرى وهي المهابارتا وذلك في شخصية كرشن بطل هذه الملحمة . وهذا هو السبب في اعتقاد جماهير الشعب الهندوكي من الطبقة المتوسطة حتى الآن بأن هؤلاء الأبطال هم الآلهة الذين تقمصوا

الانسان لهاديته في هذا الكون في حين يعتقد الفلاسفة والعلماء من الهندوس أن هؤلاء شخصيات خالدة أسطورية في التاريخ الهندوكي وليسوا من الآلهة أبدا (٢).

بعد استعراضنا لجوانب عديدة من الرامايانا ينبغي لنا لقاء نظرات خاطفة على الجوانب الأخرى مثل المجتمع الهندوكي والتقاليد والمراسيم فيه وعلاقة الشعب بالملك وعلاقة الملك بالشعب وما الى ذلك .

ان هذه الملحمة تصور عصرها تصويرا دقيقا بحيث تتجلى أمامنا جميع مظاهرها من العقائد والتقاليد والمراسيم والحياة السياسية والاجتماعية وتوحي الينا بأننا نعاصر أبطال هذه الملحمة ونشاهدهم أمامنا كشخصيات في نفس العصر والزمن والبيئة . وفي هذا العصر - كما تصور الرامايانا - كان الهنود متمسكين بالقيم الانسانية والمبادئ الروحية السامية والايمان بالأوتار ، وكانوا بعيدين كل البعد عن المادية والأنانية والشهوة النفسية . ومن أهم ظواهر المجتمع في هذا العصر أن تعدد الزوجات كان شائعا . ومن أجل ذلك نرى الملك دساراتا قد تزوج بما يقرب من أربع زوجات. وهذه الظاهرة هي التي جلبت مشكلات وويلات عدة كنفى رام من بلده وموت دساراتا بسبب ذكريات ابنه الأكبر الذي اختار لنفسه الغربة والنفي من أجل أبيه .

يقول الدكتور «رادها كرشنان» - الفيلسوف الهندوكي الشهير ورئيس جمهورية الهند - : ان هذه الظاهرة في الرامايانا سيئة للغاية لأنها تفتح المجال لتعدد الأزواج الذي لاخير فيه للانسان أبدا . وقد امتلأت قصور دساراتا بالنساء والحريم ودعا الى الاكتفاء بـ زوجة واحدة (٣).

وحينما ننظر الى رامنا الذى تولى عرش أبيه بعد العودة من المنفى لا نجد مجرد ملك يملك الأرض ويأمر وينهى ، بل نجده بجانب ذلك مجبا لشعبه عطوفا عليه ، كأنه أب ممتلىء قلبه بالحنان والشفقة والرحمة على بنيه . وكذلك أعرب الشعب عن شكره وتقديره واعجابه به الى حد بعيد حتى اتخذهُ بطلا أسطوريا والهنا من الآلهة .

وخلاف وصف الراماينا لعصره يبدو لنا أنه عصر ذهبي عاش فيه شعبه ممتعا بما ساد من الطمأنينة والرفاهية والثام . لأن هؤلاء الملوك سعوا وراء تحقيق رفاهية الشعب وتوفير أسباب الراحة له سواء أكان دساراتا أو رامنا - بطلى الملحة الذى اتخذهُ الشعب الهنا من الآلهة لشدة اعجابه به وتقديره له . كذلك يتجلى رامنا فى الملحة كبطل وانسان يتصف بالأخلاق العالية ويحمل قوى معنوية عظيمة .

وبهذا تركت الراماينا أثرا قويا فى نفوس الهندوس واحتلت مكانة الصدارة بين غيرها من الملاحم والأساطير . كما ساهمت مساهمة كبيرة فى رفع معنوية الشعب ومنحه قوة روحية دافقة وإيقاظ شعور الحب والتضحية فى نفوس الهندوس لتقديس وطنهم ومعتقداتهم الدينية وشخصياتهم الأسطورية الخالدة الى حد العبودية .

ينبغى لنا الآن بعد تحليل الراماينا تحليلا دقيقا ووصفها وصفا صادقا أن نقارنها بما يشبهها من الملاحم والأساطير لدى الأمم المتقدمة فى العصور الساقطة . وقد حاول بعض الباحثين وعلى رأسهم (Ramesh.C. Dutt) و (Lin Yutang) مقارنتها بملحة يونانية شهيرة هى الأوديسة (Odyssey) ان الأوديسة هى إحدى

ملحمتى « هوميروس (١) » الخالدين والأخرى هى « الياذة » . وتتكون الأوديسة من أربعة وعشرين نشيدا . يروى لنا الشاعر فى الأناسيد الأولى (١ - ٤) محاولة « تليماخوس » البحث عن أبيه « أودوسيوس » الذى طال غيابه بعد سقوط « طروادة » . فلما وصل الابن الى بلات « فيلاوس » عرف أن أباه قد وقع أسيرا فى كاليبسو . ثم يصف لنا الشاعر وصول بطل « الأوديسة » الى أهل « فاياكيا » حيث يرحب به الملك (٥ - ١٢) ثم يعود « أودسنيوس » ويعود ابنه الى « ايتاكا » ويتفقان على تدبير حيلة للانتقام من العشاق الذين ضايقوا « نيلوبا » (Penelope) فى غيبة زوجها (١٣ - ٢١) فيقتلهم « أودسيوس » (٢٢) ثم يكشف عن شخصيته لزوجته ويسترد حكمه ويعيش آمنا فى وطنه (٢٣) .

يقول الاستاذ (Lin Yutang) ان كلا من الراماينا والأوديسة يتناول القبة والنفسى والتشريد ، لأن رامنا يهيم على وجهه فى الغابات تصاحبه زوجته المخلصة « سينا » كما يخرج « تليماخوس » فى البحث عن أبيه الذى طال غيابه بعد سقوط طروادة . وثمة تشابه آخر بينهما وهو أن « سينا » بطلة الأسطورة تقع فى اختبار شديد لوفائها وإخلاصها لزوجها وتخرج بنجاح فى امتحانها ولا يمس شرفها وعفتها خلال هذه الملحة بشئ . وكذلك فى « الأوديسة » تختبر « نيلوبا » زوجة الملك « أودوسيوس » بعد غيبة زوجها (٢) . وهى الأخرى تعود الى زوجها بعد أحداث طويلة . وهذه (١) وهو أعظم شعراء اليونان الذى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد فى آسيا الصغرى فى إحدى المدن الآتية : « أثينا » و « أدنير » و « خيوس » و « كولوفون » . (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة ص ١٩٢١) (٢) أنظر : « الموسوعة العربية الميسرة » ص ٢٥٧ . (٣) The Wisdom of India p. 122 — 123.

الملحمة اليونانية تحمل تلك القوى المعنوية . والأخلاق الانسانية التي تمتاز بها طبيعة الهند وتصورها ملحمة « الراماينا » . ولذلك يقول الأستاذ (Ramesh Dutt) : أن كلا من راما وسيتا يعطى أروع مثال للانسان الكامل الذى نبتغى وجوده فى حياتنا ، ويمثل المثل العليا التى تتلمسها ونريدها . وهما يحملان قيما انسانية رائعة اذ تتمثل فيهما البطولة والشجاعة والمصابرة والصمود أمام الصعوبات والمشكلات . وبهذا يضرب كل منهما مثلاً رائعة للحياة الفضلى . وهذه الحياة الطيبة هى التى يتطلع اليها الهندوس وتطالب بها دياتهم لتكون فى سلوكهم ومعاملاتهم، وتصور نفس هذه الحياة المثالية « الكوميديا الالهية » التى ألفها « دانتى » (Dante) فى القرون الوسطى فى أوروبا لاعطاء صورة أوربا الروحية . ان قيما الانسانية ربما لا تتلاءم مع القيم القديمة . قبل المسيح وبعده الى القرن الرابع عشر الميلادى الا أننا رغم ذلك نجد أنفسنا فى ميسس الحاجة اليها اذ لا يمكن لنا التغافل عنها مهما تغيرت الظروف ، لأنها تمثل مبادئ سامية للانسان فى فترة من الفترات التاريخية القديمة (١) ان هذه القيم الروحية فى « الراماينا » لم تلعب دورها فى حياة الهندوس الى أمد بعيد بل سرعان ما طرأ عليها - كسنة هذا الكون - أنواع من التغيرات والتقلبات اذ ظهرت فلسفة جديدة تسمى بالسنسكريتية (Vasishnavism) وهى عبارة عن التقاء قدرة الله سبحانه مع الايمان بالله الذى وصل اليه الانسان . وقد نشأت هذه الفلسفة فى القرن الثانى قبل الميلاد وأذابت آثار الراماينا والمهابارتا الخالدة التى سيطرت على مجامع قلوب الناس ردحا طويلا من الزمن وذلك بفضل جهود

The Ramayana of the Mahabharata p. 159. (١)

كهنة هذه الفلسفة (٢) . وهذه الظاهرة هى التى جعلت الضعف والانحلال يدبان فى المبادئ التى نادت بها هذه الأساطير الخالدة . ولكن الهندوس رغم كل التطورات التى طرأت على العقائد الهندوكية وفلسفتها على مرور الزمن يعربون عن تقديرهم وشكرهم للراماينا واعجابهم بها الى حد كبير ، لأنها تتحلى بأعلى آيات القيم والمبادئ . وهذه الملاحم لاتزال تقرأ فى المعابد والأماكن المقدسة وفى البيوت ليلا ونهارا للموعظة والعبرة والدرس .

ومن أهم الظواهر فى الراماينا والتى جذبت اليها نفوس الهندوس وتمكنت وجدانهم وعواطفهم المثل العليا التى تضربها سيتا فى هذه الملحمة كأمراة هندوكية مثالية . ولذلك لاتزال تعلق النساء الهندوكيات آمالهن العريضة على سيتا ويستعدن ذكرياتها وبطولتها وتضحياتها وحبا المتفانى لزوجها وإخلاصها له ووفاءها لحياتها فى حياتهن الخاصة ويتمثلن فى تقديس وعبادة .

قد استوحى عشرات من المفكرين الهندوس وزعمائهم الدينيين فى شتى مراحل التاريخ الهندوكى من الراماينا ، ولا يزالون يستمدون منها أصولا ونماذج لحياتهم المعاصرة ويستلهمون منها الدروس والعبر والموعظة فى حياتهم الروحية وسلوكهم الشخصى . فقد دعت شخصية راما الأسطورية المثالية الانسان الكامل للهندوس وهو الزعيم الروحى «رامانوجا» (Ramanuja) أن يرفع راية التوحيد فى المنطقة الجنوبية فى القرن الثانى عشر الميلادى . وكذلك دعا «راماناندا» (Ramananda) - المفكر الهندوكى الشهير فى القرن الثالث عشر الميلادى - شعب شمال الهند

The Legacy of India p. 369 and A Critical Survey of Indian Philosophy p. 335. (٢)

الى التوحيد . أما الزعيم الروحي الكبير « كبير داس » (Kabirdas) الذي عاش في نفس القرن تقريبا فقد دعا الى الوحدة بين الهندوس والمسلمين قائلا : ان اله محمد « صلى الله عليه وسلم » هو نفس الاله الذي يتمثل في شخصية راما وعلى ابن أبي طالب (١) . وهذه كلها اشارات صوفية توحي اليها بأن الله قد تمثل في شخصية راما كما تعتقد بعض الطوائف من الشيعة في أن الله برز في شخصية على بن أبي طالب ، ولا تزال تلتبس من الرامايانا معظم الطوائف الهندوكية - ومن أبرزها « وشنو » (Vishnu) و « سيوا » (Siva) اللتان تشكلان أغلبية ساحقة في الهند - المعونة الروحية (٢) .

وبعد هذه الجولات الطويلة العريضة والنزه الممتعة في رياض هذه الملحة الشهيرة يحسن بنا الآن أن نقف وقفة غير سيرة أمام ترجمتها الى شتى اللغات ، وتعريفها للأمم الأخرى واعجاب الناس بها في عدد من أقطار هذه الدنيا، وزيادة العناية بها في الأوساط الأدبية العالمية .

ولعل أقدم ترجمة للرامايانا قد ظهرت مبكرة في لغة « تامل » أشهر لغات جنوب الهند في سنة ١١٠٠ م . ثم توالى لها ترجمات كثيرة الى اللغات الهندية الرسمية والشعبية . أما الرسمية فقد ترجمها الشيخ عبد القادر البديواني الى اللغة الفارسية - وهي اللغة الرسمية الهندية في العصور الاسلامية كلها - وذلك في عصر الملك المغولي الشهير « جلال الدين أكبر » الذي ازدهرت فيه العلوم والفنون وشهد أعظم نشاط لحركة الترجمة في التاريخ الهندي أجمع . لقد بدأ الشيخ عبد

القادر البديواني ترجمته الى اللغة الفارسية في سنة ٩٩٥ هـ - ١٥٨٦ م وأنفاها في سنة ٩٩٩ هـ - ١٥٩٠ م . كانت هذه الترجمة تتكون من عشرين جزءا ، وأهداها المترجم الى الملك جلال الدين أكبر فسر به الملك سرورا بالغا ، لأنه كان يوجه عناية كبرى الى الحضارة الهندوكية وفلسفتها بدون سابق مثال له في تاريخ الملوك المسلمين الهندود أجمع . وتوجد نسخ خطية كثيرة من هذا الكتاب في معظم مكتبات الهند حتى وقتنا هذا (٤) .

أما في العصور الأخيرة فقد ترجمها الى اللغة البنغالية - لغة الشاعر طاغور - الأستاذ (Kritibas) والى اللغة الهندية الأستاذ (Tulasi Das) والى لغة « مارهااتا » لغة ولاية بمباي - الأستاذ (Sridhar) أما ترجمة « تولاسيداس » الى اللغة الهندية فتعتبر ترجمة قيمة ودراسة علمية دقيقة . ومن أجل ذلك ترجمت دراسته الى اللغة الانجليزية واللغات الأخرى .

كان هذا المترجم معجبا جدا بالرامايانا ومبادئها حتى انه كان يفتخر حين يسمى ويلقب بالرجعي اذ لاحت عليه الآثار الرجعية بسبب اعجابه بالرامايانا بكل جوارحه ، ولايمانه القوى بما ورد فيها من التقاليد والمبادئ والتعاليم (٥) .

أما العناية بها في العصر الحديث في بلاد أوربا فقد وجدت في « ايطاليا » أول ما وجدت حيث ترجمها الى اللغة الايطالية الأستاذ (Gorresio) في ١٨٤٣ - ١٨٦٧ م على نفقة ورعاية « شارل البرت » - ملك ساردينا . ثم ترجمها الى الفرنسية الأستاذ (M. Hippolyte) وكذلك ترجمت الى اللغة الانجليزية في مدينة كلكتا بالهند أيام احتلال

(٤) أنظر : مبرم تمبورية (باللغة الأردية) للأستاذ السيد صباح الدين عبد الرحمن ص ٦٣ .

(٥) The Legacy of India p. 380.

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 162 - 163.

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٢ .

الانجليز فى بداية القرن العشرين . وقد أعيد طبع هذه الترجمة فى مدينة «بمباى» بمقدمة قيمة للأستاذ (Ramanuju) ثم طبعت هذه النسخة بعناية من الأستاذ (Hemchandra Vidyaranta) فى مدينة كلكتا فى ١٨٨٥ م . ثم وجه الأستاذ (Ralph Griffith) عنايته الى ترجمة الأجزاء الستة الأولى من الرامايانا الى الشعر الانجليزى ، والجزء السابع وهو الملحق الى النثر الانجليزى (١) . وبهذا وصلت ملحمة الرامايانا الى أوروبا واحتلت مكانة مرموقة فى آداب أوروبا حتى أعجب بها أدباء أوروبا ورحبوا بها إعجابا وتقديرا وألما بها شرحا وتفسيرا تلخيص «الرامايانا»

بعد أن قمنا بدراسة علمية للملحمة «الرامايانا» وأبدينا مزاياها وخصائصها البارزة ، واستعرضنا مكاتبتها العلمية والأدبية لدى الأدباء والكتاب فى العالم ينبغى لنا الآن أن نلخصها لتكون لها فى أذهاننا صورة واضحة . وسنحاول هنا أن نلخص ما أورده الأستاذ (Ramesh Dutt) فى كتابه (The Ramayana of the Mahabharata) لأنه أشهر باحث فى أساطير الهند وآدابها . فقد بذل مجهودا كبيرا فى اعداد هذا الكتاب .

يقول فى خطته فى الكتاب : انه اختار من هذه الملحمة الكبيرة أهم الأحداث والوقائع والمشاهد التى لاغنى عنها ، والتى تعرض الكتاب عرضا صحيحا دقيقا . من بين ٢٤٠٠٠ بيت من أصل الملحمة اختار ٢٠٠٠ بيت فقط رعاية للسهولة والسرعة واقتصادا للوقت . ورتبها فى ٨٤ فصلا صغيرا فى أسلوب سهل أنيق وأردف كل فصل بملحوظات هامة دقيقة (٢) .

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 161.

(٢) The Ramayana of the Mahabharata p. 161.

تبدأ الملحمة بوصف مدينة «أيودھيا» عاصمة دساراتا - ووصف جمالها وبهائها ورفاهية أهلها وإيمان شعبها بالآلهة وأداء طقوسهم الدينية لها . كان الملك موضع الإعجاب والتقدير فى البلاد اذ كان يجلس بين يديه ويركع أمامه القساوسة والكهان . كان الملك نموذجا حيا للأخلاق العالية والمبادئ السامية . وكان الشعب فى هذا العصر يمارس لزراعة باقتناء البقر والغنى والعلة والذهب . كانت الأخوة والمحبة والمواساة والمساعدة من أهم سميات هذا الشعب . أما الخداع والمكر والخيانة والسرعة والأخلاق الرذيلة فلم تعرف فى هذه البلاد مطلقا . وكذلك لم يشهد هذا العصر التفرقة ولا الفوارق الطبقة بل كانت جميع الطوائف والجماعات تؤدى واجباتها أداء كاملا . وكانت هذه البلاد بعيدة كل البعد عن المعارك واستخدام السيوف والرمح ، بل كانت ترفع دائما شعارات السلم والأمن والطمأنينة . ومع ذلك فقد كانت تحرسها حراسة كاملة من كل جانب الأفيال القوية التى كانت تجلب من غابات الهنالايا . كانت أيودھيا عاصمة جميلة عامرة مزودة بالعمارات الفخمة والهيكل العظيمة ومحفوظة بالبساتين والروضات . وطبقا للتقاليد الهندوكية عند اختيار الزوج للأميرات أعلن «جاناك» - ملك فيديحاس - مسابقة فى الرماية لاختيار أحسن رام كزوج لابنته «سيتا» . فيتدفق آلاف الأمراء من أطراف الهند وجوانبها على بلاط ملك فيديحاس التى تقع فى ولاية بهار . وكان من بينهم «راما» ابن الملك «دساراتا» . وقد عرض الملك «جاناك» على هؤلاء الأمراء الوافدين أداء مهمة شاقة لاختبارهم ، وهى حمل وكسر أقدام وأثقل قوس يملكه من العصور الغابرة . وقد فشل فى تنفيذ هذه المهمة كل من حضر هذه المسابقة . وتقدم راما بدوره ، وما أن فتح وشد وتر القوس حتى تحطم القوس فى طرفة

عين وارتفع منه صوت هائل مدو بلغ عنان السماء ،
وصم آذان الناس ، فأغشى على الحاضرين أجمعين ،
وتردد صدها في الجبال والوديان والغابات المحيطة
بالمدينة حتى سمعه الناس في البلدان المجاورة .
ثم ساد الهدوء وأفاق الناس من غشيتهم ، فقام
الملك يعانق الأمير «راما» وأعرب عن رغبته المخلصة
في تزويجه من ابنته الجميلة الحبيبة لديه تقديرا
لشجاعته وبطولته .

وقد وصل هذا النبأ إلى الملك «دساراتا» في
«أيودھيا» ، وكان جالسا ساعثذ على أربكته وبين
يديه وزراؤه وقساوسته وندماؤه . فهناك الجميع
على بطولة راما وشهرته الفائقة في البلاد النائية
حتى طار الملك فرحة وسرورا ، وغادر بلاده لحضور
حفل زواج راما إلى «فيديجا» . فاستقبله الملك
جاناك استقبالا منقطع النظير ، وأنزله منزلة السمع
والبصر ، وأدى بمناسبة مقدمة جميع المراسيم
الدينية . ثم أعد عدة ضخمة لحفلة الزفاف . فقد
غطى السرادق بالأكاليل والباقات من الزهور
والروائح والعطور وقرئت الأناشيد المقدسة من
«الفيدا» . ثم جلس العريس والعروس بين يدي
الكهنة يلتف حولهما آلاف مؤلفة من الناس ومن
بينهم الملوك والأمراء والوزراء والندماء ، حتى تم
الزواج بمهرجان عظيم . ثم عاد راما مع عروسه
سيتا وأهله وذويه إلى أيودھيا .

كان راما يعيش حياة طيبة مع زوجته ويؤدي
جميع واجباته الدينية ، لأنه كان راسخ الإيمان
بالآلهة . إذ كان يبندهم ويقدهم حتى رضى عنه
الربان والكهنة واحترموه احتراماً بالغاً .

ولما بلغ دساراتا من عمره مبلغا كبيرا وضعفت
قواه عزم على تنويع ابنه الأكبر راما ليتسولى
عرشه . وعقد لهذا الأمر اجتماعا كبيرا حضره جميع
أبناء الشعب وأطلعهم على قراره بتولية ابنه راما

العرش . فوافق الجميع على هذا القرار ورضوا به
إذ أنهم كانوا يحبون راما حبا جما ويقصدونه
تقديسا بالغاً . ثم أعدت العدة لتنويع راما فزينت
البلاد وزخرفت القصور واحتشدت الجماهير .
فقام راما المتدين التقى يصلى إلى الهة «نارايين»
الذى خلق جميع المخلوقات ، وقدم له الهدايا
ووضعها ، على النار التى أوقدت لهذا الغرض .
ثم أخذ مابقى من النار وأكله بركة وثوابا واعتكف
الليلة كلها ساهرا على الحشائش الخضراء التى
فرشت بها أرض المعبد يعبد «نارايين» ويطلب منه
العون والتوفيق . وكذلك فعلت زوجته «سيتا»
العفيفة الطاهرة إذ سهرت الليلة وظلت صائمة حتى
طلعت الشمس وخرج الآلاف لحضور احتفال
التنويع .

وفي غمرة هذه الفرحة والسرور ليوم التنويع ،
حدثت حادثة غريبة غيرت مجرى الحياة لكل من في
القصر ، وحطمت الآمال والأمانى ، وحولت الحياة
الجميلة إلى ويلات ونكبات ومآسى . وهذه المآسى هي
التي خلقت أسطورة الراما يانا الخالدة التى تعتبر آية
الأدب والفن بين الآداب العالمية . كانت لدساراتا
الملك زوجة رابعة تسمى «كايكيا» ملكة «كايكياس»
التي أنجبت له ولدا شجاعا سمي «بهارت» فكانت
هذه الملكة تحب ابنها وتنفرد بحبه دون الآخرين
من أولاد «دساراتا» ، وتحسد راما وتحقد عليه .
فلما رأت الزينة والزخارف والبهجة والسرور في
العاصمة كلها بمناسبة الاحتفال بتنويع راما راودت
نفسها على أن تحطمها وتحولها إلى حطام وخرائب
لبناء مجد ابنها «بهارت» وتنويعه ليخلف أباه
دساراتا على العرش . لأنه لا أمل هناك في اعتلاء
ابنها بهارت العرش إذا تم تنويع راما ، لأنه كبير
أبناء دساراتا ، والذي يستحق العرش ومن يخلفه
ابنه أو «لشمن» أخوه من أبيه فهو الآخر أقرب

الناس الى راما وسوف ينال منه مالا يناله بهارت .

وقبيل افتتاح الحفلة يبحث الملك عن زوجته الرابعة «كايكيا» فلم يجدها في حرم القصر . فاندesh الملك وزادت حيرته واشتد خوفه لأنه كان يحبها حبا كبيرا ووهب لها قلبه ووجدانه وشعوره وعواطفه وذلك لجمالها الساحر وسنها الصغيرة .

وبعد أن طال البحث عنها إذا هو يراها ملقاة على أرض غليظة تنفجر بكاء وتنهمر الدموع من عينيها . فدهش الملك لهذا المنظر الأليم وانحنى فوقها وحملها على ذراعيه ومسح الدموع من عينيها وسألها عن سر بكائها وألمها وأحضر لها جميع الأطباء والكهنة لمعالجتها . ولكنها مع ذلك تزداد بكاء وألما حتى صار الملك في غاية الحيرة والخوف ومن شدة العطف عليها حلف على أن يحقق لها جميع طلباتها مهما كانت شاقة وصعبة على أن تفتح فمها وتحكى حكايتها . وحينئذ ابتسمت الملكة وقالت : انك عاهدتني أمام الآلهة على انجاز كل طلباتي . وطلبي منك الآن هو أن توقف تنويج راما وتنفيه الى الغابات لمدة أربع عشرة سنة وتولى ابني «بهارت» على العرش . وقع هذا الكلام على قلب دسارانا كصاعقة وأظلمت الدنيا في عينيها ، فلم يكذبين له شيء ، وفقد وعيه وشعوره . ثم استعادهما بعد مدة ، وطلب منها أن تسحب هذا الطلب ولكنها أبت وأصررت على تحقيق ماوعدها به .

وقد انتهى موعد الاحتفال وارتفعت الشمس ثم ساد الظلام . وفي الصباح الباكر لليوم الثاني حضر «راما» الى أبيه وزوجته «كايكيا» ، ومس رجليهما أدبا واحتراما ثم سأل أباه عن الوجوم السائد على وجهه ، وسأل «كايكيا» عن سكوتها ، فأجابت أن والدك قطع على نفسه وعدا يجب عليك الوفاء به ، وسأخبرك بهذا الأمر اذا وعدتني على

انجازه خضوعا لوالدك وطاعة له كابن مخلص .. فتعهد لها راما بتحقيق ما وعدها أبوه به . فتقول حينئذ : يجب عليك الآن أن تترك البلاد وتعيش في الغابات لمدة أربع عشرة سنة وسيتولى أخوك بهارت الحكم بدلا منك .

يستعد راما للسفر وفاء لوعده أبيه . وهناتتجلى المواقف الانسانية الرائعة وهي أن راما بعد قراره واستعداده للخروج من البلاد وللعيش في الغابات يذهب الى زوجته سينا ويستأذنها وينصحتها بالبقاء في القصر مطيعة وخاضعة لكل من فيه من أييه وأمه وأخيه بهارت الذي سيتولى العرش بعده وينصحتها بخدمة هؤلاء وتوفير وسائل الراحة لهم . ولكنها تأبى الا أن تخرج معه وترافقه أينما ذهب وتشاركه السراء والضراء لأن أبواها علمها هذا الأمر منذ صغر سنها ، وليست حياتها الا جزءا من حياة زوجها ، وان سعادتها تكمن في سعادة زوجها وشقاءها في شقائه .

ثم يذهب الى أخيه «لشن» ابن ملكة «سوميترا» من والده ليستودعه فاذا هو الآخر مثل «سينا» يلح الحاحا شديدا على مرافقته ومشاركته في محنته والمحافظة على سينا من الكرب والغم والمغامرة بنفسه من أجلها بسيفه ورمحه . ومع ذلك يحاول «راما» اقناعه بالبقاء لخدمة أبيه وأمه وأهله كلهم ، ولكن «لشن» لا يرضى بذلك ولا يرى له عيشا في «أيودهايا» بعد مفارقة أخيه الأكبر فيصحبه هو الآخر في معامراته .

ثم يقف الجميع بين يدي ملكة «كوساليا» والدة راما التي تنفجر بكاء من حديشهم ، ثم تتقدم باكية الى «سينا» وتقبل جبينها وتقول لها : انك تتركيني لترافقين زوجك في محنته . انك سعيدة بهذا القرار ، لأن الزوجة لها أن تضحي من أجل زوجها بكل غال وثمين وتصابه في كل حين وآن،

مهما واجهت من الصعوبات ، ومهما كانت التضحيات لكي توفر له وسائل الراحة وتزيل عنه الغم والكرب ثم تقترب من ابنها راماما وتمس جبينه بيديها وتودعه وتدعوه لتوفقه الآلهة في سفره ويسددوا له خطاه ويباركوه ، وينقذوه من الآلام والأخطار .

فلما حل موعد الرحيل جاءت العربة لتركب فيها «سيتا» و «راما» و «لشمن» بعد أن جهزوا جهازا كبيرا لهذا السفر بما يحتاجون من الأسلحة والأغذية والملابس وما الى ذلك . وحضر آلاف من أبناء الشعب الذين كانوا يكونون لراما احتراما بالغا وحبا فائقا ليوذعه . كان المنظر قبل مغادرة القصر مثيرا للغاية . فقد تعالت الصرخات من كل جانب وانجذرت الدموع من عيون الناس . وكان كل واحد يقف مكانه في خشوع وبكاء . ثم حضرت الملكات باقيات صارخات وجاء الملك دساراتا وهو ينفجر بكاء . وما ان وقعت عيناه على راماما حتى وقع مغشيا عليه . فأمر راماما سائق العربة في أن يسرع بالرحيل لأنه لا يملك القدرة على رؤية هذا المشهد المثير المروع ، ولا يقدر على مشاهدة والده ولا أمه ولا شعبه . وهم على ذلك الوضع فسارت العربة بسرعة تاركة وراءها حياة القصور والجنات والأنهار الى غابات لراحة فيها ولا ظمأينة ولا سكون .. وبعد سفر مرهق طويل ولمدة ستة أيام وسط الغابات ألفت هذه القافلة عصا الترحال في موضع من الغابة وتحت ظلال شجرة باحثة عن مسكن مريح لمدة يسيرة من الزمن تسترجع فيه أنفاسها وتستجمع قواها ثم تواصل رحلتها .

صور الشاعر هذه الرحلة الشاقة تصورا صادقا بحيث تتمثل أمامنا جميع الصور للغابات والأشجار والطيور والوحوش وكأننا تشاهدنا الآن ولا نجد ثمة فرقا بينها رغم مرور آلاف السنين على هذه الصور المتعة ، لأن طبيعة البلاد اللقائية

وجمالها الساحر لم تطرأ عليهما تغيير شامل . فقد وصلوا في اليوم السادس الى جبل صغير يسمى « شتراكوتا » بين نهري « الجنجا » و « الجننا » بقرب مدينة «اله آباد» والتي اتخذها الهندوس فيما بعد مكانا مقدسا لهم . ويقال : ان هؤلاء قد التفتوا هناك بشاعر شهير هو « المقدس والميكي » الذي ألف ملحمة « الرامايانا » كما أسبقنا القول (١) .

وهناك في أيودھيا لم ينس «ودساراتا» «راما» لحظة واحدة بل ظل يبكي عليه ويتحرق شوقا لرؤياه ويذكره . وكلما مضت الأيام كانت ذكرى راماما تزداد شدة وعنفًا حتى مات دساراتا بهذه الذكريات الحزينة ومن جراء ذلك .

خلال هذه الأحداث كلها لم يعرف « بهارت » الذي أرادت له أمه تولية العرش بدلا من أخيه «راما» شيئا مما حدث ، لأنه كان في مهمة عسكرية في بلاد نائية . فلما عاد الى أيودھيا وجد فيها أحداثا وتطورات لم يتصورها . فقد توفي والده «دساراتا» ونفى أخوه الى الغابات . فدهش بما حدث ، ورفض الجلوس على العرش كما أرادت له أمه وخرج للبحث عن أخيه في الغابات . وبعد أيام حافلة بالتعب والارهاق وسط الغابات لاح له عن كتب دير لراهب من الرهبان شيد بالأوراق والأغصان على صورة كوخ صغير . فظن أن الراهب الذي فيه سوف يدلّه على أخويه وسيتا . وكان هذا الدير في الحقيقة بيت سيتا الذي كان يحرسه «لشمن» بسيفه وقوسه حتى لا يصيبها مكروه ، وكان أخوه راماما يخرج ويجيء . فدخل بهارت الدير فوجده بيت راماما فائكب على قدمي أخيه يقبلهما في حب وحنان لاحد لهما ، وطلب منه العفو وألح عليه في العودة الى البلاد وتولية العرش . فقام

راما يعانقه ويقبله ويسأله فى لهفة عن أحوال أبيه وأمه وأم لشنم وأم بهارت وشعب أيودها وكبار رجال السياسة والوزراء . فأخبره بهارت بأن دساراتا قد مات متأثرا بذكره والبكاء عليه . وأما أمه « كايكيا » فهي أيضا تلوم نفسها على ما فعلت وتقضى أيامها فى بكاء وقلق وندم لأن أنانيتها هي التي قضت على حياة دساراتا وجلبت المأساة الكبرى للبلاد كلها . ثم أخبره أن الشعب هو الآخر يذكره ولا ينساه ، كما أن رجال السياسة يذكرونه باستمرار وينتظرون قدومه فنظر اليه . فإذا أمه الملكة « كوساليا » التي رافقته للبحث عن راما قامت بين يديه . وتحركت عواطفها حينما رآته فى ملابس خشنة مصنوعة من الأوراق والأغصان كما رأت كذلك فى نفس هذا المنظر « لشنم » أخاه الوفي وسيتا زوجته المخلصة . ولكن راما أبى العودة الى أيودها قبل مضي أربع عشرة كما قطع والده على نفسه الوعد لزوجه « كايكيا » وذلك ايفاء له ، لأنه تعهد بذلك أمام الآلهة ، وهو الآن فى السماء بين يديها . وحينئذ يقول « جابالى » الفيلسوف الهندى آنذاك الذى كان يشك فى الآلهة وفى الآخرة : « كان عليه أن لا يترك عرشه بسبب الايمان بالأوهام ، لأنه لا يعرف على وجه اليقين أن والده يعيش الآن بين الآلهة فى السماء أم لا ؟ ولكن راما يعلن ايمانه بالآلهة وبالآخرة بحماس واندفاع منقطعى النظير ويصر على توفية ما قطع والده على نفسه من التعاهد . ثم ينصح راما أخاه « بهارت » بنصائح غالية لرعاية أهله وشعبه وتوفير وسائل الراحة والرفاهية للناس وبذل كل الجهود فى سبيل سعادتهم وطمانيتهم ، ثم يودع بهارت ومن معه كلا من « راما ولشنم وسيتا » ليستكملوا مدتهم فى الغابات بين البكاء والدموع ، ويحمل بهارت معه - عند عودته -

أحذية راما ليضعها على العرش ويحكم أيودها بالنيابة عنه .

لقد بدأت الآن مرحلة جديدة فى حياة راما . لأنه قرر مغادرة المناطق الشمالية من الغابات حيث يتردد عليه أهله ، وشد الرحال الى الجنوب . فألقى عصا الترحال فى غابة مظلمة بقرب نهر « جود أوارى » الذى يقع الآن على نحو مائة ميل تقريبا من مدينة بمباى . وقد رحب بهم هناك راهب كبير وهو « اجاستيا » وأعد لهم مسكنا بقرب مسكنه . ويذكر أن هذا أول وفد للآريين فى جنوب الهند ، اذ أن هذه المنطقة كانت غاصة بال دراودين - السكان الأصليين - ولم يتعرف هؤلاء حتى الآن على الديانة الآرية وتقاليدها . ولعل القدر قد شاء أن تكون محنة راما ورفقائه أول نافذة لتسرب الفكر الآرى الى جنوب الهند .

وفى يوم ما من الأيام صادف راما فى هذه الغابة المخيفة امرأة جميلة رآها واقفة تنظر اليه فى دهشة وتعجب من جماله وشبابه ، ثم تقع فى حبه من النظرة الأولى ، فتتقدم اليه ثم تسأله عن اسمه وبلده . فيحكى لها قصته . وهي بدورها تحكى له قصتها وتقول : انها تسمى « سرابا - ناكها » وهي ملكة البلاد ، وأخوها « راون » ملك سيلان . وهي انسانة غريبة تستطيع أن تتخذ عدة أشكال . ثم تعرب عن اعجابها الشديد به وجها المتفاني له وتعرض عليه الزواج ليعيش معها حياة سعيدة فى وسط الغابات ثم تدم أمامه « سيتا » زوجته المخلصة وتطعنهما فى جمالها وكذلك تطعن لشنم وتقول : انه ولد صغير لا يفهم ولا يعقل . ولا يتحمل راما هذه التهم ولا تلك الطعنات الموجهة فى زوجته وأخيه فيقول لها بكل هدوء وبكل صراحة : انه متزوج من سيتا ، وهي زوجة مخلصة الى أقصى حد

يمكن ، ولذلك لا يمكن له الزواج منها . أما لشمن فهو أعزب وفي ريعان شبابه وأنه فى مسيس الحاجة الى الزواج والى اتخاذ رفيقة لحياته . وهو مستعد لأن يزوجها منه . فتعرب عن موافقتها على ذلك ولكن «لشمن» يحتقرها ويقول لها : انى خادم راما فهل ترضى بالزواج من خادم؟ فتثور غضبا من هذا الكلام متألدة وتهدد بالانتقام من الجميع بسبب هذه الاهانة التى وجهت اليها .

وذات يوم رأت «سيتا» غزالا جميل المنظر يتحلى بأنواع الحلى، ويتزين بأفخر أنواع الزينة مارا أمام بيتها . فنادت لشمن وأمرته باصطياد هذا الغزال والاتيان به اليها . ولكن لشمن منعها من اصطياد مثل هذا الحيوان، لأنه فيه خطرا عليها اذ لعله انسان اتخذ هذا الشكل لخداعها . فلم ترض سيتا بهذا العذر وطلبت من راما مطاردة الغزال واصطيادها . فأسرع راما وراء الغزال فاذا بسيتا تسمع صرخات راما . فتذهب الى لشمن وتلح عليه فى الذهاب لانقاذ راما ولكنه يرفض مغادرتها ، لأنه على يقين من أن راما لن يمسه أذى اذ هو بطل شجاع لا يقدر أحد على ايدائه ، وأن راما قد أمره بخراستها والبقاء بجانبها ، وهذا الغزال وتلك الصرخات ماهى الا أشباح للأرواح الخبيثة التى تهوم على وجهها لتتشر الشقاء على الأبرياء فى الغابة وهنا تمتلئ «سيتا» غضبا على لشمن فتقول له : انك تعاملنى بالمكر والخداع وتراودك نفسك فى أن يموت راما وتتخذنى زوجة لك . وهذا مستحيل . انى زوجة مخلصة له ، وحينئذ ينفجر لشمن بكاء ويقول لها : انه لا يزال يعتبرها الهة كما يعتبر أخاه الها كذلك ، ومن أعز أمانيه خدمتهما وتوفير وسائل الراحة لهما ، ولكنها تشك فى كلامه فيستعد للذهاب لنجدة راما اذا كان هو فعلا يستنجد به ، فيودعها ويتركها فى حفظ الآلهة ويخرج للبحث عن راما .

مد الليل ظلالة على الغابة . فانتبه «راون» ملك سيلان هذه الفرصة للانتقام من أجل أخته التى أهانها «لشمن» ، ورفض الزواج منها . فجاء اليها على صورة راهب . ولما رآها دهش لجمالها ووقع فى حبها من النظرة الأولى فمدحها وسألها عن اسمها ونسبها . فظنته سيتا راهبا مقدسا لا يكتفم النوايا الخبيثة . فحكى له قصتها وغربتها فى هذه الغابة ثم سأله عن بلده ومدة اقامته فى هذه الغابة وعبادته كراهب مقدس . فقال لها : انه ليس براهب بل هو ملك سيلان وملك الغابات . ثم أعرب عن حبه الشديد لها وعرض عليها الزواج منه على أن تملك سيلان وتحكمها كما تشاء . فلما سمعت سيتا هذا الكلام أمطرتة بوابل من الغضب واجابته معتزة بنفسها وناظرة اليه باحتقار ، انى زوجة مخلصة لراما البطل الشجاع ، والانسان المثالى ، والرجل المقدس كالآلهة : ثم حذرتة من الاقتراب منها والمساس بها ولكنه أمسكها وحملها على عاتقه ثم أركبها عربته وفربها الى بلاده، وكانت «سيتا» تصرخ وتولول طوال الطريق وتنادى على راما بين اللحظة والأخرى لانقاذها ولكن عبثا كانت تناديه وتصرخ عليه ، لأنها اخترقت مجال هذه الغابة واقتربت من جزيرة سيلان عابرة البحار المحيطة بها .

بذل كل من راما ولشمن المستحيل فى البحث عن «سيتا» فى الغابات والأشجار والأنهار حتى وصلوا أخيرا الى جبال «ماليا» حيث لقيها «سوجريفا» ملك بلاد «فاناس» . وكان يصحبه قائده وساعده الأيمن «حانومان» (Hanuman) والذى استولى أخوه على عرشه وعلى زوجته ، وطرده من بلاده ليقيم على وجهه فى الغابات والجبال . استقبل «سوجريفا» كلا من راما ولشمن استقبالا حارا وتحركت عواطفه . حينما سمع قصة راما كلها من أول نفيه من أيودها الى خطف راون

زوجته المخلصة . ثم اتفق كلاهما على مساعدة
آخر . لقد أصر «سوجريشا» على مساعدة راما
إعادة سیتا اليه كما أقسم راما على مساعدة
سوجريشا وإعادة عرشه وزوجته اليه .

وهنا صور الشاعر الحوادث التي وقعت بصور
غريبة لانكاد نصدقها في ضوء الحقائق التاريخية
فقد عرض «حانومان» في صورة قرد وكل من في
بلاده في سيلان يزاولون السحر والشعوذة . وكذلك
لانكاد نصدق عرضه للتقاليد والمراسم والآلهة
في منطقة الجنوب على نفس الصورة الآرية ، لأن
هذه المنطقة ظلت بعيدة كل البعد عن أفكار
الآريين ونزعاتهم وتقاليدهم ومن المؤسف أن الشاعر
قد فشل في عرضه شئون هذه المنطقة عرضا صحيحا
دقيقا أمينا من ناحية الأفكار والتقاليد ولعله لحماسته
في نزعه الآرية حاول إسباغها بالصبغة الآرية
المحضنة والبعد عن الحقائق التاريخية .

وطبقا لهذا التعاهد بينهما ذهب «سوجريشا»
إلى أخيه وحاربه وساعده راما في هذه المهمة حتى
كلل سعى سوجريشا بالنجاح وهزم أخاه واستعاد
عرشه .

ثم يعد سوجريشا العدة مع راما ولشمن لشن
الحرب على «راون» لانقاذ سیتا من قبضته
الظالمه . فيرسل عشرة آلاف من رجاله الأبطال
إلى هذه المهمة ليجثوا أولا عن مكان راون في
الغابات والجبال والأوغال شرقا وغربا وشمالا
وجنوبا حتى يطلعوا على مكانه وأساراه للزحف
إليه بعدئذ .

فيتوغل هؤلاء الأبطال في الغابات والجبال
والأدغال إلى جزيرة سيلان حيث يرى «حانومان»
قائد الجيش - «سیتا» حزينه كئيبة باكية تحت
حراسة شديدة . وهنا وقف «حانومان» وقص
للناس قصة راما كلها بصوت عال مدو حتى استولت

على الناس الدهشة والحيرة لهذه الجرأة ساعة
الاستماع إلى هذه القصة وحتى أن سیتا التي سمعتها
دهشت هي الأخرى بها ولم تصدق أذناها كل ما
سمعت من «حانومان» وظنت أنها تحلم أو تتخيل
ولكن حانومان دنا منها وأعطاه علامة تؤكد لها أنها
من زوجها راما ، وأن راما في طريقه إلى الزحف
نحو سيلان لانقاذها . وحينئذ تطير سیتا فرحا
وسرورا ويشرق وجهها نورا وضياء ، وتبتسم
شفتها كما تتفتح البراعم ويعود لهما لونهما الباهر
فيعود إليها جمالها وإشراقها ، ثم تقبل على حانومان
وتسأله عن راما وصحته وعيشه بعد خطفها ، ثم عن
لشمن وعن أيودها ، فيخبرها بما عنده من أخبار
ويطمئنها على أن جيشا جرارا في طريقه إلى محاربة
«راون» في عقر داره ، ثم يستأذنها في العودة إلى
راما بعد أن يأخذ منها تذكارا يؤكد سلامتها
وشوقها ولهفتها إلى راما .

وقد علم «راون» كيف تمكن حانومان من
التوغل في البحار والأنهار والوصول إلى سيلان
ومقابلة سیتا في السجن وإحراق جزء كبير من سيلان
في هذه الغامرة . فاستدعى وزراءه ومستشاريه
ليعقد مجلسا للتشاور معهم حول موضوع حانومان
وأخباره ، وعن استعداد راما للزحف نحو سيلان،
ومحاربة راون لانقاذ سیتا . فأشار عليه معظمهم
بالصمود أمام راما ومحاربتة وتوجيه الهزيمة إلى
جيشه ، إلا أن بعض المخلصين له أشاروا عليه
بتسليم سیتا إلى راما ومسالمة ، ولكنه رفض رأيهم
متمسكا برأى الأغلبية . وكان من بين هؤلاء
المخلصين «بيهشان» «وأخوراو» نفسه وهو
«كومباكارانا» فاضطر «بيهشان» بعد رفض
رأيه إلى مغادرة سيلان والانضمام إلى صفوف راما
وبهذا أطلع راما على أسرار بالغة الخطورة فيما
يتعلق بالحرب مع راوان .

وبعد أن تم الاستعداد زحف راما الى سيلان
يصحبه جيش جرار لم يسبق له مثيل ، واشترك
في هذه المعارك أعظم القواد والأبطال ومن بينهم
أخوه «لشمن» البطل . ولما وصلوا الى سيلان
أعلنوا الحرب على راون لاستعادة سيتا . وقدواجه
راون القوة بالقوة ودارت بين الفريقين معارك
دامية سقط فيها أعظم القواد والأبطال لراون حين
هجم كل منهما بجيشه بهجمات عنيفة موقعة على
جيش الآخرين ، فقد هجم أخو راون ثلاث مرات
على جيش راما وكذلك فعل « اندراجت » ابن
راون .

سجلت هذه المعارك مشاهد رائعة لايزال
يردها أبناء الهند كملحمة مقدسة . وهذه المعارك
وحدها قد ترجمت الى عدة لغات ومن بينها اللغة
الانجليزية بسبب وصفها الرائع للمعارك والمشاهد
العظيمة للحرب المقدسة . لقد هجم راون مرتين على
لشمن وهزمه في كل مرة ولكن لشمن لم يقع في
يده . أما راما فقد حارب كبطل من الأبطال وهزم
في كل مرة كل من قابله ولم يذق طعم الهزيمة مرة
من المرات طوال المعارك .

كان ابن راون ساحرا كبيرا . وقد استعرض
الألعاب السحرية في هذه المعارك واختفى عن عيون
راما وأخيه لشمن وهزمهما مرات عديدة ، ولكنه لم
يستمر في سحره مدة طويلة بل سرعان ما قتله
لشمن . وكذلك قتل راون بسيف راما أخيرا ، وبقتله
انتهت المعارك وانتصر راما .

وتصف هذه الملحمة أن الآلهة كلهم كانوا مع
راما في هذه الحرب يساعدهون ويشدون أزره
ويشجعونه . ولذلك انتصر على راون الشرير . ثم
أمر راما بإحراق جثة راون ، ثم وضعت أكوام من
الخشب والصندل والزيت والروائح عليها ، وأشعلت
النيران فيها حتى تحولت جثته الى رماد .

ثم استقبل راما « سيتا » ولكنه لم يقربها خوفا
من الاشاعات التي أثرت حول علاقتها براون وذلك
بسبب اقامتها في قصره وسيطرته عليها مدة غير
يسيرة . وقد أدركت سيتا هذه الحقيقة ولذلك طلبت
الى لشمن اعداد نار حامية لتلقى فيها نفسها حتى
تثبت طهارتها وعفتها . فأعدت النار وألقت سيتا
نفسها فيها ولكن « اله النار » حفظها من كل سوء
وخرجت بريئة طاهرة من النار . فتوجه اليها راما
وعانقها . ثم أمر باعداد جهاز السفر الى أيودهايا
اذ انقضت الأربع عشرة سنة في الغابات وحان بذلك
الرحيل الى بلاده . وقبل مغادرته سيلان سلم سيلان
التي فتحتها الى « سوجريشا » الذي ساعده في هذه
المهمة لأنه وعده بذلك أثناء اقامتهما في الغابة أيام
المحنة .

وقد أعدت العدة للرحيل وخرجت القافلة الى
أيودهايا مارة بالغابات والأنهار التي عاش فيها راما
أيام محنته . ولما وصلت أبناء قدومه الى أيودهايا
زينت البلاد بأجمل الزينات ، وأقيمت الحفلات
لاستقبال العائدين من الأبطال . ولما دخل راما
عاصمته تدفقت عليه الجماهير من كل جانب ترحب
به وبمن معه ، وتهتف باسمه ، وتقدم له تحياتها
وتهانيتها . فقدمه بهارت الى العرش وأخذ أجزيته .
ثم قدم عليه الناس يهنئونه ويباركون كفاحه ومن
بينهم أمهاته وأخوته جميعا .

انتشرت الاشاعات مرة أخرى حول سيتا
واقامتها في سيلان تحت سيطرة راون . فأمرها راما
بمغادرة القصر الى الغابة والاقامة فيها الى أن تعرض
مرة أخرى ما ثبت طهارتها وعفتها . فخرجت من
قصرها الى الغابة ولجأت الى الراهب « والميكي »
ومعها ولداها اللذان رباهما الراهب تربية رهبانية
وفي هذه الغابة ماتت سيتا قبل أن يتم بينها وبين راما
لقاء آخر .

حكم راما أيودهيامدة طويلة من الزمان. وعاش الشعب في حكمه عيشة راضية طيبة تسودها الطمأنينة والرفاهية والأمن والسلام . ولم يسهم سوء طوال أيامه في الحكم . وارتفعت قيمهم المعنوية بامثالهم أمره لأنهم اعتقدوه انسانا مثاليا فحذوا حذوه ذراعا بذراع وشبرا بشبر في الخير والشر ، ثم صيروه شخصية أسطورية والهـا من الآلهة .

واليكـم مشهد من أصل « الراما يانا » كنموذج لأسلوب الراما يانا ومنهجه وعرضه . وهذا المشهد في الحقيقة مشوق ومثير يصور حياة راما في الغابة وحضور أخيه « بهارت » اليه ليحمله على العودة الى البلاد . ومن الجدير بالذكر أن ملحمة « الراما يانا » تتكون من نوعين من المقاطع : المقطع الأول يسمى « شاباي » (Chaupai) بالسنسكريتية وهو يتكون من ثمانية أبيات حيث ينتهي الى ختام حديث أو فكرة ثم يليه « دوها » (Doha) وهو النوع الثاني - الذي يتكون من بيتين تكملة لشاباي .

شاباي (١) ٢٤٠

قام بهارت بين يدي أخيه «راما» وأخيه الآخر ومع صديق له ، ثم وقف صامتا احتراما ، وقلبه خال من كل تفكير يشوبه من فرح أو حزن ، كأنه في عبادة . ثم قال لأخيه : أغفر لي ياسيدي واعف عني ثم وقع على قدميه كقطعة هامة من الخشب .

وقد شعر «لشمن» - المسكين - بالذي يقصده بهارت وخيل اليه أنه في عبادة الآن . ولا يمكنه أن يقترب منه أو يعانقه . فقد أصبح في حيرة شديدة بين شيئين يشده كل منهما الى جانبه : الأول أنه (١) قد اخترنا هذا الفصل من أصل الراما يانا من ترجمة الباحث الهندي كى الشهير « تولسيداس » (Tulsidas) من الجزء الثاني ص ٧٣٢-٧٣٥ .

ينبغي له أن يقدم خدماته ويؤدي واجباته نحو أخيه راما . والثاني أنه يجب أخاه بهارت أيضا . وهذا الحب يشده هو الآخر اليه شدا عنيقا . فأيهما يختار؟ لقد أصبح الآن كطفل يلعب بطيارة ويشدها الى جانبه لتقويم ميزانها . وأخيرا رجع بين يدي راما وقال له : هاهو ذا بهارت جاء اليك ليحيئك . فاستفاق راما من غيبوته ، وحطم سكوته وقفز الى جانب بهارت راميا كل ما كان في يده من قوس ورمح وجعبة وعباءة .

دوها

هذا الرجل العطوف الرحيم قد وضع يده على قلب أخيه « بهارت » بعد أن فاض قلبه ولم يتمالك عواطفه فعانقه معانقة حارة . وهذا المشهد المثير قد حرك قلوب الناس جميعا .

شاباي ٢٤١

لا يمكن لأحد من الشعراء مهما بلغ أمره أن يصف أو يعبر عن هذا الحب المتفاني ، ولا ذلك اللقاء الجار لأنهما فوق التصور وفوق الأسباب وفوق التفكير وفوق ما يدور بخلد انسان .

وأنا الشاعر لا أستطيع أن أعبر عن مدى جبهما بسبب عجزى كانبسان ضعيف . ان الشاعر يبذل جهده ولكنه لا يجد لمثل هذا الموقف تشبيها كاملا وكل ما يستطيعه أن يأتي بهذه الكلمات أو تلك التعبيرات لوصف ما يدور في قلبه وصفا صادقا كما أن الزاقصة تعرض رقصتها في نطاق محدود لها لاتخرج عنه . والحقيقة أن حب هؤلاء الاخوة كفيض لانهاية له وكبحر لاحدود له . ولا يمكن كشف غوامضه حتى لأى كاهن أو ساحر .

ولأجل ذلك لا يمتلك عقلى ما يصور به ولا لسانى ما يعبر به تعبيرا صادقا ومثلى كمثل موسيقار يعجز عن ابتداء نغمات جميلة بوتر من الحشيش . حيثما التقى كل من راما وبهارت تساقطت

الآلهة اضطرابا وارتعشت خشية ورهبة ، ولكن
سيدهم أيقظهم من سكرتهم الحائرة فقاموا
يمطرون الأزهار والورود على أولئك الاخوة
ويمجدونهم ويقرظونهم .

دوها

رحب راماد « شاتروجانا » - شقيق
بهارات - ثم بالملاح كما رحب « لشن » بدوره
بأخيه بهارت مبديا له حبه وسروره .

شاباي ٢٤٢

ورحب « لشن » بشاتروجانا بكلمات رقيقة
صادقة مخلصة ، ثم رحب بالملاح بنفس الطريقة .
ثم سلم الاخوة القادمون على كل راهب من
الرهبان الموجودين . فدعا لهم الرهبان بالتوفيق
والسداد ، ثم غمرهم السرور وعمتهم الفرحة
بدون حدود ، وأخيرا اتجه « بهارت » مع أخيه
الى سينا وهما في غاية من الشوق والحنان وركعا
أمامها حتى مس جبينهما تراب قدميها وأعربا لها
عن تقديرهما وشوقهما وطلب بهارت منها العفو .
فرفعت سينا جبينهما من التراب وأجلستهما

بجوارها . فأعرب كل منهما عن تقديره وشوقه
مرة أخرى . فدعت لهما سينا من أعماق قلبها أذ
غمرتها المحبة والعطف نحوهما بغير حدود حتى
أصبحت لا تملك الكلمات التي تعبر بها عما يختلج
فى نفسها نحوهما . فلما رأى بهارت محبة سينا
وشوقها له ذهب عنه الروح وعاد له شعوره ووعيه
فاطمأن قلبه وهدأ باله واستراح ضميره .

ثم ساد المكان الهدوء والصمت الرهيب ، ولم
ينطق أحد بكلمة بل ظل الجمع ساكنا صامتا
لأن قلوبهم قد غمرتها الفرحة والبهجة والسرور
وأصبحوا كأنهم نسوا أنفسهم . وفى هذه اللحظة
حطم الملاح سكوتهم اذ قدم بين أيديهم طلبه
بخضوع وأدب موجه كلامه الى راماد .

دوها

يا سيدى ! قد حضرت اليك الملكة - أمك
وقائد الجيش والوزير والخدم وجماهير شعب
المدينة . وأيضا جاءك الراهب الكبير « واشست »
بعد أن عاشوا جميعا فى قلق واضطراب وحزن
على غيابك زمنا طويلا وهم يطلبون الآن عفوك
وكرمك .